

الأثر الفوتوغرافي في رواية "جيرتود"

جعفر عاقيل

المعهد العالي للإعلام والاتصال - الرباط

تحاول هذه القراءة الوقوف على بعض الأشكال والمعاني التي تحضر بها الصورة عموماً والفوتوغرافيا تحديداً في رواية "جيرتود" لكاتبها حسن نجبي، وبالمقابل فهي صادرة سنة 2011 عن المركز الثقافي العربي. إن ما يبرر قراءتنا هو افتتاح هذه التجربة الروائية، إلى جانب بعض التجارب الأدبية المغربية الأخرى في العقود الثلاثة الأخيرة، على مجموعة من الأشكال التعبيرية البصرية كالتصوير والسينما وضمنها أيضاً الصورة الفوتوغرافية¹. ثانياً، الحضور المميز للغة والأنساد والثقافة البصرية في مختلف فصول الرواية، فهي حيناً تمثل لوحة زيتية وحياناً آخر منحوته وفي أكثر من مناسبة صورة فوتوغرافية. ويشغل هذا الشكل التعبيري الأخير حيزاً هاماً في البناء العام للرواية وذلك من خلال الحضور المكثف والمتشدد للألبوم الفوتوغرافي ولجنس البورتريه الفوتوغرافي. بل يمكن القول إنهما يقومان بدور اللازم في هذا النص، فبدءاً بالغلاف ومروراً بمختلف فصول الرواية وانتهاءً إلى الصفحة الرابعة منه نجد أن لغة الصورة، وتحديداً البورتريه، حاضرة كآلية بل كمكون أساس في كتابة النص وفي نسج خيوط أحداثه وحالاته.

ويمكن التمييز عملياً بين ثلاثة أنواع من البورتريهات في رواية "جيرتود". النوع الأول، يتتمي إلى مجال التصوير *La peinture* وتجسد صورة غلاف الرواية باعتبارها عتبة نعبر من خلالها إلى عوالم شخصية جيرتود ستاين. وقد احتل هذا البورتريه ثلاثي مساحة

الغلاف كإيجاد لقطة صدرية يبرز فيها بجلاء وجه جيرترود بملامح حزينة وبنظره ثاقبة توجه القارئ نحو خارج الحقل المصور. وللتذكير فقط، فهذا البورتريه هو موقع بريشة المصور الإسباني الشهير بابلو بيكاسو. لا يتلقى القارئ هذا الغلاف باعتباره وسيلة للإغراء والاستهلاك والاستدراج، أي ك Kund für die Werbung والدعائية بالمنتج وهو الدور الذي يلعبه كل غلاف في مثل هذه المناسبات خصباً، بل أيضاً باعتباره تكتيفاً واحترازاً وتبييراً لمجموع القصص التي ستنسج خيوطها فيما بعد فصول الرواية، سواء تعلق الأمر بوجه جيرترود ستلين وملامحه وتفاصيله أو بمزاج شخصيتها أو بانكساراتها وأفراحها أو بهموم حياتها الخاصة والعامة. إن هذا التوظيف، في تقديرنا، ليس توظيفاً اعتباطياً وإنما ينم عن اختيار جمالي وللتذكير بذلك العلاقة الوجودية التي كانت تربط جيرترود بهذا البورتريه. إذ تحدثنا صفحات الرواية بتفصيل وفي أكثر من مناسبة عن هذه العلاقة عبر لسان الرواوى: "وهناك، فوق المدفأة كان يعلو البورتريه المعلوم لبيكاسو، ذاك الذي لا يكاد يمر يوم جديد بدون أن تتكلم عنه جيرترود. هناك في الأعلى، وكأنه مرأة تتطلع إليها الآنسة لترى روحها لا وجهها فقط" ص. 138. ثم يسترسل في الصفحة نفسها "مرة أخرى، وقف محمد يتأمل البورتريه الذي جعلت منه بؤرة حياتها اليومية، بل حياتها كلها". كما يضيف في ص. 219. "وتدريجياً، صار البورتريه بؤرة اهتمام محمد مثلاً كان بؤرة لاهتمام جيرترود، وربما بؤرة لوجودها كلها".

أما النوع الثاني، فنطلق عليه إجرائياً "البورتريه اللغطي" وهو بدوره يشغل مساحات مهمة في الرواية كايقون في فصولها بأساليب وصيغ مختلفة. وتقوم وظيفته على تقرير شخص الرواية من القارئ وخاصة منها شخصية جيرترود ، يقول الرواوى: "تأمل الجسد الملحمي الذي يشدُّ الانتباه كله، الوجه شبهَ المستدير، وشعر الرأس المصوف بعناية مثل

إِكْلِيل مُلْكِي، وَالْكَلْبُ الْأَيْضُ الصَّغِيرُ بَاسْكِيتُ وَهُوَ يَدْاعِبُ سَاقِيهَا، ثُمَّ بَدَا لَهُ صِفَاءُ الْجَبَنِ وَانْتِفَاحٌ عِنْدَ مُنْحَنِيِ الْجَفَنَيْنِ لِعَلِهِ مِنْ أَثْرِ السَّهْرِ. وَعَادَا لِلجلوسِ أَحَدُهُمَا قُبْلَةَ الْآخَرِ." ص.⁷⁹، وفي موضع سابق يتدخل الرواية بعبارات مختلفة ليصف لنا إحدى الشخصيات فيقول: "لا يكشف وجه ليديا ألتمان عن سنهما، لكن لا يبدوا أنها وصلت الخمسين. وجه دائري ممتليء، نحاسي، فاتح السمرة لامرأة مفعمة بالحياة من الجنوب الأمريكي. صدر عريض ناهض. تبدو ميالة إلى التفكك والانشراح والظرافة، متقددة الحواس مثل جمرة هادئة، وإن كانت تفضل الصمت واختصار المناقشات. ولا تعطي الانطباع، رغم هدوء الملامح، بأنها تحزن سلاماً داخلياً." ص⁶²². إن هذا النوع من الكتابة يتقطع في جوانب كبيرة مع البورتريه الصحفي الذي يحاول فيه أو من خلاله الصحفي رسم صورة دقيقة ومركزة وجامعة عن الموضوع الذي يريد تقديمها أو التعريف به بجمهور القراء. فينغمض في تمثيل أو إعادة تمثيل، بوساطة اللغة، تفاصيل الوجه وقسماته ونقاطه وخطوطه وملامحه وأيضا تصوير تعبيرات الجسد وحركاته البارزة منها والخفية، العقوية والمفكر فيها، أي جميع المعلومات والمعطيات التي من شأنها أن تقرب القارئ من خصوصية هذه الشخصية وفرادتها وقناعتها وميلاتها وأهوائها. وهذا ليس بالمستحيل على حسن نجمي كاتب هذه الرواية الذي مارس مهنة الصحافة بأجناسها المختلفة لسنوات طويلة، الأمر الذي مكنه من اكتساب تجربة ورؤى عميقتين. إن هذه الدرابة في الكتابة ستجده لها أثراً في هذه الرواية، كما ستجدها نفسها حكاياً موشوماً بالتشويق وأحياناً عديدة بالإثارة.

أما النوع الثالث، فهو الذي يهمنا أكثر في هذا المقام بحكم أنه يشغل مساحات أكبر وأبلغ من النوعين السابقين، بل يمكن أن نزعم أن رواية "جيرتروود" تستحضر لحظة حياكة أحداثها ونسج علاقات شخصها ووصف أمكنتها وسرد أزمنتها مضامين ومحفوظات ومعاني

مجموعة من الصور الفوتوغرافية، حيناً متخيلة وأخرى واقعية، جيء بها من الألبوم العائلي لجيرترود لتعزيز وترسيخ بعض المخططات والمنعطفات والتحولات الهاامة في حياتها باعتبارها الشخصية المحورية في الرواية. لقد اتخذ هذا الشكل التعبيري في الرواية أوجهها وأشكالاً متعددة، فهو تارة يأخذ صيغة بورتريه فردي وأحياناً بورتريه في علاقته بمحیطه وتارة أخرى بورتريه جماعي أو عائلي. وكلها آليات ومكونات وأساليب تشهد على افتتاح هذه الرواية واحتياكها، وأيضاً تفاعلاً مع أشكال تعبيرية مختلفة تماماً، من حيث المعجم والنحو، عن ما هو مستعمل ومتداول في السجل اللغوي. ولقد تكرر استعمال هذا الجنس التعبيري في أكثر من مناسبة وفي أكثر من فصل، إلا أنه سيبلغ ذروته في الفصل الرابع وتخصيصاً من الصفحة 88 إلى الصفحة 95. بحيث من خلال الأشكال والاستعمالات والسياقات التي حضر بها البورتريه في الرواية، نتمكن من التعرف، عن قرب، على طبائع شخصية جيرترود ونسر أخواتها ونكتشف أهواها وندرك بعض أسرارها. كما نتعرف على حالات الغموض والالتباس والتقلب والاستقرار التي تغلب عليها في اتخاذ القرارات وتبني الآراء والماضي والدفاع عن الأذواق والحساسيات ليس فقط في علاقتها بذاتها، وإنما أيضاً في علاقتها بأصدقائها وخاصة عاشقها محمد. إن جانباً كبيراً من أسرار هذه الشخصية يوح بحقيقة من خلال مجموع القراءات والحكايات التي تفسر بها أو التي تؤول بها جيرترود محتويات فوتوغرافيات ألبومها العائلي. وأيضاً من خلال التعاليف والتقصص والأحداث والروايات التي ترقفها بهذه الصور والتي ترتبط في جانب كبير منها إما بلحظات شخصية أو بمناسبات عائلية أو لقاءات مع أصدقاء.

إن المتأمل للسياقات والصيغ التي استعمل بها الألبوم الفوتوغرافي في رواية "جيرترود"، تستوقفه كلامحة بارزة فكرة إعادة استحضار بعض الجوانب والمخططات من

الذاكرة الحية والعائلية لجيرتود. فمن خلال هذه الرحلة في الزمن يتعرف القارئ عن قرب عن شخصيتها وعن محياها ومسارها الأدبي والفنى، يقول الراوى في الصفحة 141: "فالآنسة تجد في الصور ذريعة لتحكي الكثير عن نفسها وعن الآخرين". وفي الصفحة 94 يسرد كذلك "الألبوم الفوتوغرافى الذى قدمته كا لو أنه كتاب يقرأ لا فقط صور تُرى...". إن دور الفوتوغرافيا هنا لا يقل مكانة عن دور الوثيقة التي تسهم في إعادة كتابة تاريخ الأحداث، الخاصة منها أو العامة، كما أنها تقوم بترميم التقوب والكسور والجروح التي كان لها تأثير ثم أثر سلبي في هذه الذاكرة³، وأخيراً أنه من خلال توظيف هذه التقنية أي ph-autobiographie نسترجع كقراء أهم المحطات البارزة في حياة هذه الكاتبة المرموقة بدءاً من فترة طفولتها وصولاً إلى مرحلة تألقها وشهرتها. ويمكن القول، بناء على ما سبق، أن هذا التوظيف للألبوم الفوتوغرافي لم يكن في الواقع الأمر سوى ذريعة من كاتب الرواية لي quam nous avons dans l'œuvre de l'écrivain pour nous faire entrer dans son monde et nous faire partager ses expériences et ses émotions. Enquête عن حياة بل حيات هذه الشخصية الأدبية الغربية الأطوار. وهنا تحضر مرة ثانية المرجعية والتجربة والممارسة وكذلك الحس والذكاء الصحفى، ليقدم لنا عالما مليئا بالمحاذفات والاستفهامات والتشويق، إلا أنه في الوقت نفسه عالما خاليا من العلامات والآثار وال بصمات التي عودنا عليها الأدب النبئ. إذ ونحن نتبع تطور الحكايات في الرواية ونحو تتعقب الأحداث فيها وطريقة تقديم الشخص و المآلات والعواقب التي ينتهي إليها مسار البعض منها، نجد ذهنا وجسدنا مشدودين نحو مغامرات وتجوالات تهدف بنا في دروب واتجاهات ودهاليز لا محدودة. ذلك أن الأسلوب الذي تبنته الرواية هنا لا يتأسس على حركة خطية واحدة كما لا يستقر على طريق سير يبني اتجاهها كرونولوجيا مستقيما. وإنما سمات البارزتان هما التطاويف والدوران وهذا مؤشر على أنها نواجه كتابة متمرة وقلقة.

تثير فينا رواية "جيرترود" للكاتب حسن نجمي مجموعة من الأسئلة المرتبطة بالعلاقات الممكنة أو المستحيلة ما بين الكتابة والتاريخ والذاكرة. كما أنها تخرط في نقاش ثقافي وفيه يسعى إلى تغيير تصوراتنا للوثيقة، وخاصة عاداتنا الإدراكية لهذه الأخيرة وللعمل التوثيقي ككل. إن المفهوم الجديد الذي تحاول الرواية ترسیخه فينا، لم يعد يحصر معنى الوثيقة فقط في سجل المكتوب أو المخطوط لتأريخ واقعة أو لحظة من لحظات الحاضر أو المستقبل، وإنما صار يعتمد ويراهن على الصورة بأجناسها المختلفة وأسنادها المتعددة. وهذا يجربنا بدوره إلى الحديث عن حاجتنا اليوم وباللحاظ إلى التعرف على اللغات التي تناطينا بها الصور والآليات التي توظفها لأهدافها الظاهرة والخفية وعلى المعجم الذي تخينه هذه الأغراض وعلى الأساليب التي تستعملها في التعبير والإيقاع، وحاجتنا أيضاً إلى التسلح بالمعرفة الفكرية والبصرية الكافية لنتمكن من الملاحظة والتفكيك القراءة والتحليل وإعادة التركيب ثم التأويل لأخذ الحرر من سلطتها القهارة. وتلك مهمة صعبة في زمن سرنا نفتقد فيه يوماً بعد يوم لغاتنا وأحساسنا وأذواقنا، وصار فيه العماء والضرر هو الثقافة السائدة بامتياز...¹

¹- يمكن للقارئ الاستثناء، في هذا الباب على سبيل المثال لا الحصر، برواي "ثلاثية الرباط" (1994) و"صيف في ستوكهولم" (1990) لعبد الكبير الخطيبي و"المديمة الأخيرة" (2012) لمحمود عبد الغني.

²- يمكن العودة كذلك للصفحة 32 من الرواية حيث سيشخص الروي مساحة هامة لرسم بورتريه عن شخصية محمد بعد موته.

³- انظر الصفحتين 49 و 50 حيث استعملت استعمالاً استعاراتياً للتعبير عن النّذكر والذاكرة.